التناسب لدى حازم القرطاجني

Proportionality and Hazem El Qartajani

مليايي إكرام

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة

Ikram.ikoula@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/02/28 تاريخ القبول: 2020/07/10 تاريخ النشر: 2020/08/13

ملخص: أخذ الحديث عن التناسب حيّزا رحبا في الدراسات اللّسانية النّصيّة التراثية، كونه من القضايا المهمّة التي اهتم بها الباحثون القدامى، والذي يسهم في ربط أواصر النّص ويثبت له نصّيته، ومن بين المهتمين بهذه الظاهرة نجد حازم القرطاجني الذي خصص لها قسطا وافرا في مصنّفه منهاج البلغاء وسرج الأدباء.

كلمات مفتاحية: التناسب، المناسبة، حازم القرطاجني، التماسك، لسانيات النص، المنهاج.

Abstract: It is commonplace to state that proportionality has always and long played an outsized role within the scope of traditional textual linguistic studies since it is widely considered as one of the pertinent issues tackled by ancient scholars who devoted a great deal of attention to it. This is due to its weighty importance that contributes enormously in the link between the bounds of the text. Proportionality as a phenomenon has received a widespread attention, among those who were interested to light it up is the colourful "Hazem Al Qartajani" in his influential book " Minhadj El Boulagha and Sirdj El Oudaba" .

Keywords: Proportionality; Link; Hazem Al Qartajani; Cohesion – Textual linguistics; Methodism.

المؤلف المرسل: د. مليايي إكرام، **الإيميل:** **Ikram.ikoula@gmail.com**

يزخر تراثنا اللغوي العربي بفيض غزير من الدراسات المتعلقة بمجالات متعددة، الصرفية منها والنحوية والبلاغية والدلالية، ولقد اعتنى الباحثون العرب بالعلاقة القائمة أساسا بين اللغة والفكر، وحاولوا تفسير الظاهرة اللغوية تفسيرا عميقا، معتمدين بالدرجة الأولى على تلك الآليات الإجرائية المعتمدة في تحليل النصوص وتفسيرها تفسيرا دقيقا، وعلى ما كانوا يرونه يفضل-في نظرهم-من مفاهيم وأدوات عمّا هو مألوف عندهم.

كما كانوا يعرجون في تحليلاتهم على تلك المفاهيم التي تثبت للنص نصيته، ومن هؤلاء العلماء العرب الناقد حازم القرطاجني (**ت685**) الذي خلف لنا كتابا نفيسا "ضخم الحجم، جليل القدر، ذائع الشهرة، عظيم المكانة، فريد المنهج"[1]ووسمه:" منهاج البلغاء وسراج الأدباء" وقف فيه عند محطات كبرى من خلال حديثه عن التناسق وانسجام النص الشعري وهذه المفاهيم أصبحت تشكل اليوم روافد مرجعية مهمة في الدّرس اللّساني النّصي.

يعتبر حازم من بين اللّغويين العرب الذين اهتموا بقضية شغلت جلّ الباحثين في مجال معالجة النص، فنجده كثيرا ما كان يهتم بقضايا النصوص ويتعامل مع العناصر التي تخدمها وتثبت لها النصيّة بامتياز.

يرى القرطاجني أن صناعة البلاغة تكمن في إعطاء الأهمية للفظ كونه يرتبط أشد الارتباط بالعلامة المتعلقة بتلك الصورة التي تُسهم في تكوين الهيئة الذهنية من خلال وجودها في الواقع بالنظر لما تؤديه في نقلها لمزايا خطابية منسجمة لتكون وقعا ودلالة على النفوس المستقبلة[2]. ويدرس حازم قضية اللّفظ ثم يعرج بعدها على أثره ودلالته، إذ يقول في منهاجه: "يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللّفظ الدّال على الصور الذهنية في نفسه ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النفوس من جهة هيأته ودلالته، ومن جهة ما تكون عليه تلك الصور الذّهنيّة في أنفسها، ومن جهة مواقعها من النفوس من جهة هيئاتها ودلالاتها على ما خارج الذهن ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء التي تلك المعاني الذهنية صور لها وأمثلة دالّة عليها، ومن جهة مواقع تلك الأشياء من النّفوس"[3] يبيّن لنا هذا القول طريقة اختيار المعاني

واقتباسها وكيفية اجتلابها وتأليف بعضها إلى بعض، وهذا المفهوم ينطبق على تلك المصطلحات المرتبطة بالانسجام والتناسق.

والمتتبع للمفاهيم اللّسانية النّصية في كتاب حازم القرطاجني يدرك -بلطف-أنّه كان يقف عند مجموعة من المفاهيم لينوّه بدورها الفاعل في النص، الأمر الذي يقتضي مني أن أبحث عن هذه المفاهيم أولا، ثم أعمل على ترتيبها ودراستها، للإجابة عن أسئلة كثيرة لها صلة بواقع الدرس اللساني النصي، ثم النظر فيما إذا كانت تتطابق مع ما أقرّه دي بوجراند من معايير نصية، وما مدى تطابق النسق المفاهيمي النّصي ومصطلحاته لدى القرطاجني مع مفاهيم ومصطلحات لسانيات النّص الحديثة؟ وهل تعامل حازم القرطاجني مع هذه المصطلحات والمفاهيم بوعي عميق؟

1. قانون التناسب ومستويات تفكيك النص الشعري لدى حازم:

1.2-فكرة التناسب عند القرطاجني:

إن المتتبع لكلام القرطاجني عن أنماط الأوزان يدرك أنَّ تحقيق التناسب بين المسموعات في الأوزان يقتضي تجزئتها من منظور بلاغي يراعي تناسب المسموعات وانتظاماتها، ومنه تَتَحَقَّق الغاية الجمالية.

وكما يدرك -أيضا- أنه عرج في حديثه عن تناسب الوزن والغرض، ويحيل حازم في هذا الباب على ضرورة مراعاة تناسب الوزن والغرض تناسبا جدليا تكون فيه القصيدة مهيأة للوصول إلى الغاية المقصودة منها.

ووجه القرطاجني عنايته إلى مصطلح التناسب بوصفه الركيزة الأساسية لتشكيل النصوص الشعرية، فذكره في مواضع كثيرة ومختلفة من كتابه، باعتباره أهم عنصر يوظفه الشاعر في قصيدته كي يستقيم شعره ويتصف بالجودة والاتقان.

ومن هنا فالتناسب عند صاحب المنهاج وسيلة من وسائل تحقيق الجمال الفني، وهو من الأسس الجمالية، وأصفى شاهد نقدمه في هذا الشأن: "أول هذه الأسس الجمالية هي قضية التناسب، فالقدرة على إظهار التناسب بين أضلاع العمل الفني، وإخاء المنافرة، هي عنصر جمالي له تأثيرات بالغة في غايات الفن، وأظهر صور التناسب عند حازم هي التناسب بين الغرض والمعاني المتخيلة فيه"[4]

وينضاف إلى ذلك -أيضا-تأكيده على ضرورة تناسب الحروف، وتناسب اللفظ للمعنى وتناسب العبارات بعضها مع بعض، و لم يغفل التناسب بين الأغراض والمقاصد والأوزان، وهذا كله قد يساهم في الجودة الفنية للنصوص الشعرية، فعندما يتحقق التناسب بين جميع أجزاء النص يقدّم للشعر حلاوته ولذته "فالتأليف بين المتناسبات له حلاوة في المسموع، وما ائتلف من غير المتناسبات والمتماثلات فغير مستحلى ولا مستطاب"[5]

وما نستشفه من كلامه أنه يعتبر مبدأ التناسب هو أساس الوحدة، فبه تتماسك عناصر العمل الأدبي؛ لأنه يقوم بضم كل مؤتلف ويوقع التشابه بين ما كان يبدو لنا للوهلة الأولى مختلفا، لذلك إذا تحقق هذا المبدأ على جل المستويات المختلفة الإيقاعية واللّغوية، فستبنى القصيدة بوصفها كلا واحدا متماسكا غير منفك.

ونخلص مما تقدم أن صاحب المنهاج اعتبر مبدأ التناسب هو الأساس في ربط الوحدات الصغرى كالحروف والألفاظ، ثم الأجزاء الكبرى بجعلها كلّا متناسب العناصر، فارتباط هذه الجزئيات يُظهر الجودة، وهو يرى أنه "كلما وردت أنواع الشيء وضروبه مترتبة على نظام متشاكل، وتأليف متناسب، كان ذلك أدعى لتعجيب النفس، وإيلاعها بالاستماع من الشيء، ووقع منها الموقع الذي ترتاح له"[6].

2.2-مظاهر التناسب عند صاحب المنهاج:

أ. التناسب في الحروف:

نلفي أن حازم من خلال منهاجه يعطي الفضل في خلق المتعة واللذة والجمال الفني في النصوص لأصغر وحدة وهي الحروف، بوصفها الصوت الذي يؤثر في تناسب العبارات والجمل، فيقول: "والتهدّي إلى العبارات الحسنة يكون بأن يكون للشاعر قوة يستولي فكره بها على جميع الجهات التي يستكمل حسن الكلام بالترامي به إلى كل جهة منها والتباعد عن الجهات التي تضادها، وتلك الجهات هي اختيار المواد اللفظية أولا من جهة تحسن في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها ومقاديرها واجتناب ما يقبح في ذلك"[7]

التناسب الذي نلمسه بين الحروف المؤلّفة للألفاظ التي تتكون منها العبارات يعتبر المنطلق الأساس لنجاح أي نص، الأمر الذي جعل القرطاجني يركز على حسن تنظيم الحروف بجعلها الوحدة الصغرى التي تترك لمسة فنية جمالية في النص، وتساعد على تماسكه وبالتالي تتحقق الغايات التي كان يصبو إليها الشاعر من خلال قصيدته.

والشاعر لن يتمكن من تحقيق ذلك التناسب إلا إذا كان يحسن تأليف الحروف وضمها لبعضها، كما أن حسن بناء الحروف هو من شروط البلاغة؛ لأن الكلام لن يتصف بالجودة والبلاغة إذا تنافرت حروفه، وهذا ما أقرّه صاحب المنهاج في كتابه عندما عرّج على قضية حسن التأليف وتلاؤمه؛ لأنه كان يسعى من خلال ذلك إلى إبراز التناسب الموجود بين كل الحروف وعلاقته المتوفرة في مختلف التآليف.

ب– التناسب في الألفاظ:

والمتأمل في قول القرطاجني السابق يدرك أنه لم يرجع حسن التأليف والصنعة للحروف فقط، بل تجاوز ذلك إلى ما قد تنتجه لنا تلك الوحدات الصغرى عند ائتلافها ببعضها، فلن يتحقق تناسب الألفاظ إلا بتحقق الحروف أولا، ونجده أرجع التناسب في الألفاظ حسب ما ورد في منهاجه إلى:

أولا:" ألا تتفاوت الكلم المؤتلفة في مقدار الاستعمال فتكون الواحدة في نهاية الابتذال والأخرى في نهاية الحوشيّة وقلّة الاستعمال"[8].

وطالب حازم بضرورة اتباع الأسلوب الموحد في الإنتاج وهذا ما سبقه إليه ابن طباطبا (**ت 322ه/934م**) حين قال: " الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي والفصيح، لم يخلط به الحضري المولد، وإذا أتى بلفظة غربية أتبعها أخواتها، وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة"[9] نلاحظ أن رأي القرطاجني يقترب من آراء سابقيه حول قضية حسن بناء الألفاظ في النص.

ثانيا:"أن تتناسب بعض صفاتها مثل أن تكون إحداهما مشتقة من الأخرى مع تغاير المعنيين من جهة، أو جهات أو تماثل أوزان الكلم أو تتوازن مقاطعها.

ثالثا: أن تكون كلّ كلمة قويّة الطلب لما يليها من الكلم أليق بها من كل ما يمكن أن يوضع موضعها"[10].

وفي ضوء هذا الطرح ندرك أن القرطاجني كان يبتعد عن التصنع والتكلّف في الصنعة لتحقيق التناسب، كما كان يدعو إلى حسن بناء الكلم وترك التوعر في انتقاء الألفاظ ليسهل النطق ويحسن في السمع وتتقبله النفس ويكون على حسن ديباجة.

ج–التناسب في العبارات:

يجعل صاحب المنهاج هذا التناسب مرتبطا بالشاعر، وضرورة تقيّده بهذا المبدأ أثناء تأليفه لعباراته، لذلك قدّم للشاعر شروطا عليه اتباعها ليتحقق في شعره التناسب، وهي كالآتي:

1- التّسهل في العبارات وترك التكلف؛ وهي بأن يبتعد الشاعر عن الألفاظ المتوعرة ويحسن انتقاء العبارات السهلة السلسة، وأن يكون اللفظ مطابقا للمعنى تابعا له، وأن تجري العبارة من جميع أنحائها على أوضح منهاج البيان والفصاحة.

2-إيثار حسن الوضع والمبنى وتجنب ما يقبح من ذلك: "فمن حسن الوضع اللفظي أن يؤاخي في الكلام بين كلم تتماثل في مواد لفظها أو في صياغتها أو في مقاطعها فتحسن بذلك ديباجة الكلام... ووضع اللفظ إزاء اللفظ الذي بين معنييهما تقارب وتناظر من جهة ما لأحدهما إلى الآخر انتساب وله به علقة، وحمله عليه في الترتيب"[11]

3-ألّا يزيد الشاعر على قدر الحاجة من كلّ ما يستحسن، وألّا يجعل التمادي عليه سببا إلى السآمة، فإذا بالغ الشاعر في الزيادة تظهر علامات التكلف والتصنع وبالتالي تنفر النفس من ذلك النّص.

كما نجد القرطاجني يطالب الناظم بجمع الحروف المناسبة، وتأليف بها ألفاظ سلسة تميل إليها النفس وتستطيب لها الأذن، لينتج بها عبارات تحمل مقاصد جمّة يقول: "وبقوّة التّهدي إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعذبة، جزلة ذات طلاوة، فالاستعذاب فيها بحسن المواد والصيغ والائتلاف والاستعمال المتوسط، والطلاوة تكون بائتلاف الكلم من حروف صقيلة وتشاكل يقع في التأليف ربّما خفي سببه وقصّرت العبارة عنه، والجزالة تكون بشدّة التطالب بين كلمة وما يجاورها وبتقارب أنماط الكلم في الاستعمال"[12].

ونلفي أن حازم كان يدرك بأن العملية الشعرية عملية معقدة ولن تعطي أثرها الفنّي الجمالي إلا إذا اتبع المبدع مبدأ التناسب، لذلك فسّر من خلال قوله مختلف العلاقات التي قد يحتاجها أي ناظم لبناء كلامه، لإيصال مقصدية معينة تختلف باختلاف الناظم وطريقة تأليفه، فقوّة الكاتب وفطنته تبعده عن القبح وتقربه من الحسن، فالناظم الناجح هو من يؤلف نصا بعيدا عن التصنع والتكلف والتوعر قريبا من السلاسة والسهولة.

د-التناسب في المعاني:

انتقل القرطاجني في كتابه من التناسب الشكلي في القصائد الشعرية إلى التناسب المضموني المعنوي، بحيث جعل هذا الأخير معيارا أساسا لصناعة الشعر ووسيلة لغوية يتواصل بها

المنشئ مع المتلقي، فغرض الأقاويل الشعرية هو تقديم ألفاظ للمتلقي تتضمنها معان متماسكة متناسبة، وعلى القارئ أن يفكك شفراتها من أجل بلوغ الغاية، بفضل ذلك التلاحم، ونجد صاحب منهاج البلغاء قد اعتبر الكلام هو المعنى بقوله: "لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج النّاس إلى تفهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضا على تحصيل المنافع وإزاحة المضارّ وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها وجبَ أن يكون المتكلم يبتغي إمّا إفادة المخاطَب، أو الاستفادة منه. إمّا بأن يلقي إليه لفظا يدلّ المخاطب إما على تأدية شيء من المتكلم إليه بالفعل أو تأدية معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وإما بأن يلقي إليه لفظا يدله على اقتضاء شيء منه إلى المتكلم بالفعل أو اقتضاء معرفة بجميع أحواله أو بعضها بالقول، وكان الشيء المؤدى بالقول لا يخلو من أن يكون بيّنا فيقتصر به على الاقتصاص أو يكون مشتكلا فيؤدّى على جهات من التفصيل والبيان والاستدلال عليه والاحتجاج له"[13].

بعدها قدّم لنا نصا شرح من خلاله أنحاء تواجد المعاني وطرق تحققها وتناسبها وكيفيات قيامها يقول: "فأمّا السبب في حسن موقع المحاكاة من النفس من جهة اقترانها بالمحاسن التأليفية فهو أنه لما كان للنفس في اجتلاء المعاني في العبارات المستحسنة من حسن الموقع الذي يرتاح له ما لا يكون لها عند قيام المعنى بفكرها من غير طريق السمع، ولا عند ما يوحى إليها المعنى بإشارة، ولا عند ما تجتليه في عبارة مستقبحة، ولهذا نجد الإنسان قد يقوم المعنى بخاطره على جهة التذكر، وقد يشار له إليه، وقد يلقى إليه بعبارة مستقبحة، فلا يرتاح له في واحد من هذه الأحوال. فإذا تلقاه في عبارة بديعة اهتز له وتحرك لمقتضاه".[14]

ما نستنتجه من هذا قول المفصّل أنه يرى بأن المعنى ينشأ في الفكر وبدون أية واسطة أو ألفاظ تعبيرية شفهية، كما قدّم بعض الشروط المساعدة على تحقق ترابط في المعاني في الأقاويل الشعرية منها الإشارة والحركة والعبارة كذلك التلفظ الشفهي أو بفضل الكتابة وأضاف أخيرا التأمل البصري الخطي.

والأمر الملفت للانتباه في كتاب حازم وخصوصا في قضية المعنى أنّه قام بتفريع المعنى إلى عدة تقسيمات جعلها أساسية:

أ-**المعاني الذهنية:** اشتد اهتمام القرطاجني بهذا المصطلح حتى أنه كان يفتخر ويتباهى به لأنه الدارس الوحيد الذي أطلق هذا الاسم على تلك المعاني فلم يذكرها سابقوه قط، قال عنها:" وإذا قد عرفنا كيفية التصرف في المعاني التي لها وجود خارج الذهن والتي جعلت بالفرض بمنزلة ما له وجود خارج الذهن فيجب أيضاً أن (يشار) إلى المعاني التي ليس لها وجود خارج الذهن أصلا، وإنما هي أمور ذهنية محصولها صور تقع في الكلام بتنوع طرق التأليف في المعاني والألفاظ الدالة عليها والتقاذف بها إلى جهات من الترتيب والإسناد، وذلك مثل أن تنسب الشيء إلى الشيء على جهة وصفه به أو الإخبار به عنه أو تقديمه عليه في الصورة المصطلح على تسميتها فعلا أو نحو ذلك. فالإتباع والجر وما جرى مجراهما معان ليس لها خارج الذهن وجود؛ لأن الذي خارج الذهن هو ثبوت نسبة شيء إلى شيء أو كون الشيء لا نسبة له إلى الشيء. فأما أن يقدم عليه أو يؤخر عنه أو يتصرف في العبارة عنه نحوا من هذه التصاريف فأمور ليس وجودها إلا في الذهن خاصة".[15]

ربط حازم المعاني الذهنية بالتصورات القبلية سواء أكان لها وجود في المرجع الواقعي الخارجي أم لم يكن لها وجود، وخصّ حديثه حولها من ناحية التركيب والعلاقات بين المفردات أو الأشياء وبين بعضها البعض أو بين المعاني في علاقتها مع بعضها البعض.

ب-المعاني الأول والمعاني الثواني: جعل حازم هذين المصطلحين متلازمين، فكثيرا ما كان يعرجّ عليهما معا ويقول: "والمعاني الشعرية منها ما يكون مقصودا في نفسه بحسب غرض الشعر ومعتمدا إيراده، ومنها ما ليس بمعتمد إيراده ولكن يورد على أن يحاكى به ما اعتمد من ذلك أو يحال به عليه أو غير ذلك. ولنسمِّ المعاني التي تكون من متن الكلام ونفس غرض الشعر المعاني الأول، ولنسمّ المعاني التي ليست من متن الكلام ونفس الغرض ولكنها أمثلة لتلك أو استدلالات عليها أو غير ذلك لا موجب لإيرادها في الكلام غير محاكاة المعاني الأول بها أو ملاحظة وجه

يجمع بينهما على بعض الهيئات التي تتلاقى عليها المعاني ويصار من بعضها إلى بعض المعاني الثواني. فتكون معاني الشعر منقسمة إلى أوائل وثوان."[16]

ما نفهمه من هذا القول هو ربط هذه المعاني بالأغراض والمقاصد، فعدّ المعاني الأول هي التي تمثل مقصد الكلام وعمدة الأقاويل الشعرية، أما المعاني الثواني جعلها مرتبطة وتابعة للمعاني الأول بالتمثيل لها والاستدلال عليها، كما جعل كلا المعنيين من أقسام الشعر، وهنا نشير أن القرطاجني في طرحه هذا يكون قد خالف طرح عبد القاهر الجرجاني في تمثله للمعاني الأول والمعاني الثواني[17].

ونخلص مما جاء في كلام القرطاجني أن المعاني نوعان، وهما كالآتي:

أ-أن المعاني الأُوَل عند حازم هي تلك التي لها علاقة مباشرة بغرض القصيدة.

ب-وأن المعاني الثواني هي التي ترد على سبيل الإحالة، كذكر واقعة تاريخية على سبيل الاستدلال أو التشبيه مثلا.

وأن المعاني الثواني لا يكون ذِكْرُها مقبولا إلا بأحد شرطين:

أحدهما: أن تكونَ أشهرَ من المعاني الأُوَل، وتأتي حينئذ للتوضيح.

وثانيهما: أن تكونَ مُساوية للمعاني الأُوَل في الشهرة، وتأتي حينئذ للتأكيد[18].

ونجده ركّز في حديثه عن تناسب المعاني على مصطلحيْ التطالب والإسناد وجعلهما فرعا من مبدأ التناسب فشرحهما بقوله: "إنّ المعاني منها ما يتطالب بحسب الإسناد خاصة، ومنها ما يتطالب بحسب الإسناد وبحسب انتساب بعض المعاني إلى بعض في أنفسها بكونها أمثالا أو أشباها أو أضدادا أو متقاربات من الأمثال أو الأضداد. فالنسب الإسناديّة تلاحظ الأفكار فيها أربعة أشياء وهي: البيان والمبالغة والمناسبة والمشاكلة التي يكون سببها من الخفاء بحيث قد يتعذر عرفان كنهه"[19].

ثم ينتقل لشرح التطالب فيقول: "فأمّا التطالب فيه بحسب انتساب بعض المعاني إلى بعض فلا تخلو النسبة فيه من أن تقع بين المعنيين بواسطة أو بغير واسطة، فأما ما وقعت فيه بغير واسطة فيمكن حصر أنواعه وصوره، وأما ما تقع فيه النسب بواسطة فعزيز حصرها فيه لكون كل معنى يمكن أن يكون جهة للتطالب بين معنيين بتوسّطه، وجهة التطالب هي النسبة. ولقوى النفوس تفاضل في ملاحظة الجهة النبيهة في نسبة معنى إلى معنى والتنبه إليها، ومبحثها في ذلك على الجهات التي تفيد معاني كالتشبيهات والتتميمات والمبالغات والتعليلات وغير ذلك من ضروب الوجوه التي تكسب الكلام حسنا وإبداعا"[20] وبقليل من التأمل في قول القرطاجني ندرك بيسر أنّه ربط تحقق الفصاحة بشدة تطالب العبارة وما يجاورها، وبتقارب أنماط الكلم في الاستعمال، وشدة التطالب يقصد بها شدة المناسبة بين العبارة والأخرى من حيث المعاني.

كما أكد أن علاقة التناسب من حيث الشكل لا تكمن في الائتلاف، بل بالتماثل والتشابه، وبالتخالف والتضاد، وصرح بذلك في قوله: "كلّما كانت المتماثلات أو المتشابهات أو المتخالفات قليلا وجودها وأمكن استيعابها مع ذلك أو استيعاب أشرفها وأشدّها تقدما في الغرض الذي ذكرت من أجله كانت النفوس بذلك أشدّ إعجابا وأكثر له تحركا... ولا تجد النفس للمناسبة بين ما كثر وجوده ما تجد لما قلّ من الهزّة وحسن الموقع، لكونها لا تستغرب جلب العتيد استغرابها لجلب ما عزّ"[21].

وما نستخلصه من كلام القرطاجني حول قضية تناسب المعاني، أنه كان يدعو دوما إلى ضرورة حسن ربط المعاني في النصوص، لكي يترك هذا التناسب سلاسة كبيرة في النص، حتى لا يشعر المتلقي بالفجوات الناتجة عن تلك الاخفاقات في الربط، خاصة عند انتقال الناظم من معنى لآخر عليه أن يحسن الانتقال بدون اغفال مبدأ التناسب، فقدرة الشاعر على تجسيد التناسب المعنوي في النصوص، يدل على إجادة الناظم في بنائها وتوزيع المعاني بينها.

كما ركّز على ربط أحداث المعاني مع بعضها البعض دون الفصل بينها، حتى لا يختل المعنى ويصعب الفهم؛ لأنّ تحقق المقاصد يكون بتآلف المعاني فيما بينها داخل النصوص.

ونخَلُص بعد تتبع مفهوم التناسب لدى القرطاجني بالإضافة إلى مفاهيم أخرى جديرة بالاهتمام والمرتبطة الدّرس اللّساني النّصي المعاصر التي يزخر بها منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني أنّ الأصول التي عاد إليها واعتمدها في منهاجه امتازت بالتفرع والتنوع، منها ما كان من أصول عربية، ومنها ما كان من أصول غير عربية،كغرْفه من أنظمة معرفية مختلفة كإفادته من الفلسفة الأرسطية بغية تعزيز طرحه الفكري واللغوي، الأمر الذي زاد بحثه رصانة وعمقا في التفكير، وأصفى شاهد نقدمه في هذا الشأن هو أن حازما لما عمد إلى تناسب الأغراض مع الأوزان الشعرية، فإنه احتكم في هذا التجربة إلى البلاغة العربية أولا، واستأنس بالنظرية الفكرية والفلسفية والمنطقية، وينضاف إليها ذوقه الرفيع وقراءاته الشعرية القوية، الأمر الذي ساعده على أن يجمع لمصطلح المحاكاة فصاحة الخفاجي القائمة على الصوت، وفصاحة الجرجاني القائمة على النظم.

وهكذا تفرد حازم بهذه الرؤية عن النقاد والبلاغيين العرب، رؤية تنهض على كيفية معالجة الأوزان الشّعرية في علاقتها الوطيدة ببنية الإيقاع، والتي لم تنفصل بدورها عن البنى الدّلالية للقصيدة العربية.

[1]- تقرير حول كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لأبي الحسن حازم القرطاجني
: https://www.alukah.net/culture/0/108976/#ixzz5u7Uye2Tx

[2]- ينظر ملامح نحو النص في التراث العربي، معمر عفاس، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والفنون، جامعة وهران1-أحمد بن بلة- ، ص94.

[3]-منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، ص17.

[4]- الخيال مصطلحا نقديا بين حازم القرطاجني والفلاسفة، صفوت عبد الله الخطيب، مجلة فصول، العدد 34، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب،1987م، ص65.

[5]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الشعراء، ص 267.

[6]- المصدر نفسه، ص245.

[7]- المصدر السابق، ص222.

[8]- المصدر السابق، ص222.

[9]– عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1، 1982، ص12.

[10]– منهاج البلغاء وسراج الشعراء، حازم القرطاجني، ص 222.

[11]– المصدر السابق، ص224.

[12]– المصدر السابق، ص225.

[13]– المصدر السابق، ص344، 345.

[14]– المصدر نفسه، ص118.

[15]– المصدر السابق، ص15، 16.

[16]– المصدر السابق، ص23.

[17]– ينظر دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني ص 272.

[18]– أشغال المؤتمر العلمي الدولي حول "حازم القرطاجني وقضايا تجديد الرؤية والمنهج في البلاغة العربية القديمة" المنعقد اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان يومي 14-11/15/ 2017 بالمغرب.

[19]– المصدر نفسه، ص44.

[20]–المصدر السابق،ص44.

[21]– المصدر نفسه، ص46.